ISSN: 2523 – 1871

الوصف الصّوتيّ للقاف بين القدامى والمحدثين: دراسة تحليليّة نقديّة

د. آمال الصّيد أبو عجيلة

عضو هيأة تدريس بقسم اللّغة العربيّة كليّة الآداب جامعة بنغازي

المستخلص

عند النظر إلى وصف الأصوات اللغوية لدى المحدثين نجدهم يخالفون علماءنا القدامى فيما يتعلق بوصف بعض الأصوات ومن ضمنها صوت (القاف)، ويأتون بأدلتهم وحججهم التي يثبتون بها أن القدماء قد جانبهم الصواب في تبيان مخرج هذا الصّوت وصفاته المميّزة له، لكن بشيء من التأمّل وجدتُ أن القدماء لم يحيدوا عن الوصف الحقيقي لصوت القاف، لكنّ أسلوبهم في الوصف يحتاج قليلاً من التمعّن والتفكّر، فكلام علماء الأصوات المحدثين ونظرتهم هذه بُنِيتْ على أساس فهم مستعجل غير متأنٍّ، ومن ثَمّ حكموا على وصف الأسلاف بالخلط أو الاضطراب، والأمر – في الواقع – خلاف ذلك تماماً، وهذا ما أودُّ طرحه في هذه الدراسة؛ إنصافاً للأسلاف –وفي مقدمتهم سيبويه– وإيضاحاً لما غَمُضَ من كلامهم حول الوصف الصوتي لصوت القاف من حيث المخرج والصفات .

الكلمات المفتاحية

صوت القاف – سيبويه

المقدّمة

لقد وصف علماء اللغة القدامى –أمثال الخليل وسيبويه وابن جني وكذلك ابن سينا – صوتَ القاف مخرجاً وصفة، و كذلك فعل القراء وفي مقدمتهم ابن الجزري، ثم وصف المحدثون الأصوات اللغوية بما فيها القاف، وطرحوا وجهات نظر مختلفة حول وصف هذا الصوت بالذات، تختلف عما وجدناه في مؤلفات علمائنا القدامى، بل إنهم ينعتون كلام الأسلاف بعدم الدقة حيناً، والغموض حيناً، و بالخلط أحياناً كثيرة، و منهم من أراد أن يكون منصفاً فاقترح أن الأسلاف كانوا يصفون صوتاً غير الذي نعرفه اليوم بصوت القاف في لغتنا الفصيحة لغة القرآن الكريم، ويُرجعون ذلك إلى ما يطرأ على الأصوات من تغيّر بفعل عوامل التّطور المفروضة على اللغة بوصفها كائنٌاً حيّاً خاضعاً لمؤثرات بيئته المختلفة .

ISSN: 2523 – 1871

ومدار الخلاف بين الفريقين يكمن في أمرين، الأول: مخرجها؛ أي التحديد الدقيق لمخرج القاف الفصيحة –كما تُسمى– أي التي ينطقها المتكلّم بالفصحى، وهي التي يُنطق بها – أيضاً – في تلاوتنا لكتاب الله العزيز، والأمر الثاني : صفاتها، ويتمحور الجدال حول صفتي الجهر والهمس، ووضع القاف في مكانها الصحيح من هاتين الصفتين، فهل هي من ضمن الأصوات المجهورة كما وصفها الأسلاف ؟ أم هي صوت مهموس كما يصفها المحدثون ؟ وفيما يأتي سأتناول بالدراسة والتّحليل آراء الفريقين؛ لنصل إلى ما نطمئن إليه في وصف صوت القاف مخرجاً وصفةً و الذي لا نشك في أنه لم يتغيّر، ولم يتطوّر؛ لكونه حُفِظ بحفظ القرآن الكريم .

الوصف الصوتيّ لصوت القاف بين القدامى و المحدثين

لعلّ من الأولى أن أعرض في البداية آراء المحدثين لمناقشة وصفهم لكيفية حدوث صوت القاف نطقياً، ومن ثَمّ أنتقل إلى ما قيل حول الصفات العامة لهذا الصّوت، و لاسيما صفتي الجهر والهمس، مع اصطحاب نقدهم لوصف القدماء صوت القاف مخرجاً وصفةً في أثناء التحليل الصوتي وعرض الآراء ونقدها.

بعض هؤلاء المحدثين اتخذ من دراسة الاختلاف النطقي لصوت القاف من لهجة لأخرى، منطلقاً لمعرفة أصل هذا الصوت اللغوي، وما آل إليه بعد ذلك بحكم قوانين التغير الصوتي المفروضة على كل لغة من اللغات؛ فاللهجات العامية – كما نعلم– هي روافد انبثقت من اللغة الفصيحة، وينبغي على الباحث أن يستقصي أصولها وجذورها؛ وذلك أننا لا نستطيع إدراك النطق الفعلي لصوت القاف أو غيره من الأصوات كما نطقه الأسلاف في ذلك الوقت على نحو جازم ،فضلاً عن أننا لا نستطيع أن نفهم وصفهم الذي نجده مسطراً في مؤلفاتهم، بعبارة أخرى نحن لا نملك تسجيلات صوتية تنبؤنا بما كان عليه نطق الأسلاف للأصوات في تلك الحقبة من الزمن، فلا مناص إذن من التخمين وفرض الفروض عن طريق المعطيات الموجودة لدينا، وما هذه المعطيات إلا طرائق مختلفة لنطق صوت القاف في لهجاتنا العامية .

ISSN: 2523 – 1871

من أجل ذلك، قام أحد الباحثين (أبو مغلي:47–48) باستقصاء الصور المختلفة لنطق صوت القاف في اللهجات العربية، فوصلت لديه إلى خمس صور نذكرها فيما يأتي :

1. القاف التي نعرفها اليوم في الفصحى.
2. القاف البدوية.
3. القاف كما ينطقها أهل السودان قريبة من الغين.
4. القاف كما ينطقها أهل الريف في فلسطين (كافاً) وذلك كقولهم : الكُدِس بدل القُدْس.
5. القاف كما ينطقها أهل المدن الكبيرة نحو عمان ودمشق والقاهرة (همزة).

ولم يذكر الباحث صورة سادسة لنطق صوت القاف وهي تلك التي نسمعها من بعض أهل الخليج العربي عندما يقولون (صدج) بدل صدق، وجدّام يريدون : قدّام .

ولو أمعنا النظر في هذه المظاهر الصوتية لنطق القاف لرأينا أنه من الجائز لنا أن نستبعد بعضها؛ إذ ليس من السائغ أن يكون هو الأصل الذي وصفه أسلافنا، وهذه الصور المستبعدة هي الصور الثلاث الأخيرة، وهي التي ينطقها بعض أهل الخليج، وكذلك التي تُنطق كافاً عند بعض الفلسطينيين، وبدهيٌّ– أيضاً – أن نستبعد القاف التي تُنطق همزة .

بقي لدينا ثلاث صور لنطق القاف:

فأما الصورة **الثالثة:** فتلك القاف التي وصفها د. إبراهيم أنيس (1999م: 84–85) صوتٌ شبيه بصوت الغين ،ورأى احتمالية كونه القاف الأصلية القديمة التي وصفها سيبويه، وأن هذا الصوت المجهور الرخو قد أصابه الهمس والشدة، فصار القاف التي نعرفها اليوم في الفصحى!

لا أظن أبداً أن هذا الاحتمال واردٌ ؛ ذلك أن القاف التي وصفها سيبويه(1975: 433/4) تخرج من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى (شديدة مجهورة)، صحيح أن هذه القاف الشبيهة بالغين تقترب مع قاف سيبويه من حيث المخرج وصفة الجهر، إلا أن هذا الصوت رخو، ولا يمكن بحال من الأحوال أن يكون صوت القاف الذي وصفه سيبويه، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن صوت القاف

ISSN: 2523 – 1871

كما نجده عند أسلافنا من النحويين والقراء من أصوات القلقلة، ويشترط في الصوت الحامل لهذه الصفة أن يكون شديداً مجهوراً، أما القاف الشبيهة بالغين فلا حظّ لها في صفة القلقلة لرخاوتها، فكيف نسلِّم أنها قاف سيبويه؟

لا أدري كيف وضع د. أنيس هذا الاحتمال؟ هو في الحقيقة لم يرجحه، لكنّ مجرد القول –ولو على سبيل الافتراض– أن هذا الصوت الرّخو المجهور هو تلك القاف التي وصفها سيبويه يجعلنا نتصوّر أنّ آيات القرآن كانت تُقرأ فيها القاف غيناً أو شبيهة بالغين في عهد سيبويه! وهو أمر لا يقبله العقل فضلاً عن كونه غير مقبول بحال من الأحوال عند علماء تجويد القرآن الكريم .

بقي لدينا صورتان من الصور التي ذكرها (أبو مغلي :47–48) وهما اللتان نستطيع القول بوجوب ترجيح إحداهما على الأخرى، ولصعوبة استبعاد إحداهما وجب – أيضاً – النظر الفاحص والتحليل الدقيق لكل ما قيل في وصفهما، ومن ثَمّ نصل إلى وصف حقيقي وواقعي للقاف التي وصفها القدماء، والتي – أزعم – أنها لابد أن تكون هي نفسها التي وصفها المحدثون بعد ذلك؛ لأن الوصف الصوتي إن كان صائباً عند الفريقين فلابد أن يكون واحداً .

أولى هاتين الصورتين: ما ننطقه اليوم في فصحانا، وهو صامت " يُنْتَجُ عن طريق اتصال مؤخر اللسان بمنطقة اللهاة مع الطبق اللين (بصورة لا تسمح بمرور الهواء) يعقبه تسريح فجائيّ (انفجاري) " (عمر:1997م : 318)

الثانية : ما رجّح معظم الباحثين المحدثين كونه الأصل في نطق الأسلاف، لمطابقته –في نظرهم– وصفَ سيبويه وغيره لمخرج القاف وصفاته، وهي التي ينطقها البدو، فبعض الأصوات يختلف نطقه الحالي عنه في الزمان القديم ومنها القاف ،التي هي في العادة اليوم مهموسة، لكنها عند القدماء مجهورة (براجشتراسر : 16–17) وسيأتي الردّ على ذلك في الصفحات القادمة من هذا البحث .

لكن قبل مناقشة هاتين الصورتين نذكر في هذا الإطار أيضاً –أي الاستعانة بطرائق نطقية مختلفة لصوت القاف مستمدةً من اللهجات– ذكر (بشر : 2000: 285) صوراً أربع لنطق القاف في اللهجات قديماً وحديثاً وهي :

ISSN: 2523 – 1871

1- القاف صوت لهوي وقفة انفجارية مهموس.

2- القاف صوت حنكي قصي وقفة انفجارية مجهور.

3- القاف صوت حنجري وقفة انفجارية (همزة).

4- القاف صوت حنكي قصي احتكاكي مجهور (غين).

وقد علّق عليها بقوله: إن الأولى هي التي يجري استعمالها لدى المتخصصين كما ينطق بها القرآن الكريم، والثانية موجودة في اللهجات القديمة وهي التي وصفها القدماء في كتبهم، أما الصورتان الثالثة والرابعة فليستا بانتشار سابقتيهما ولا بأهميتهما، وبذلك تبقى لدينا بالفعل صورتان للمناقشة والتّحليل.

عودٌ إلى السجال بين المحدثين والسابقين، أقول: إن الباحثين المحدثين يصفون الأصوات وصفاً دقيقاً بما توفّر لديهم من أجهزة وتقنيات حديثة، لم تكن في متناول أسلافنا الذين وصفوا الأصوات نفسها ،لكن هذا لا يعني أن وصف القدماء للأصوات كان بعيداً عن الصواب لدرجة افتراض أن القاف الفصيحة لديهم كانت كالغين!

ومهما يكن من أمر هذه الافتراضات فإن ما تبقى لنا– بعد استبعاد المرفوضة منها كما سبق لنا القول– صورتان للقاف فقط، القاف الفصيحة والقاف البدوية، وفيما يأتي نبيّن مخرج القاف وصفاته لدى المحدثين؛ لنقارن بين وصفهم وصف الأسلاف وفي مقدمتهم سيبويه .

يقول المحدثون إنها تَنْطَقُ " برفع أقصى اللسان حتى يلتقي بأدنى الحلق واللهاة، مع عدم السماح للهواء بالمرور من الأنف، وبعد ضغط الهواء مدة من الزمن، ينطلق سراح مجرى الهواء؛ بأن ينخفض أقصى اللسان فجأة، فيندفع الهواء محدثاً صوتاً انفجارياً، ولا يتذبذب الوتران الصوتيان عند النطق به؛ فالقاف صوت لهويٌّ انفجاريٌّ مهموس"(بشر: 1980 :109)

ISSN: 2523 – 1871

أما عند سيبويه(4/ 433–435) فهي من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى، وهي شديدة مجهورة، ثم يذكر مخرج الكاف بعدها مباشرة ومخرجها : من أسفل من موضع القاف من اللسان قليلاً ومما يليه من الحنك الأعلى، ومخرج الكاف في الواقع كان مدار الجدال بين الفريقين؛ لأن سيبويه يعضد وصف مخرج القاف، في حين يراه المحدثون قد أخطأ كما سنبيّن.

فضلاً عن أن الخلاف بين القدامى والمحدثين –كما يبدو– ليس في المخرج فقط ،بل نجدهم يختلفون حول المخرج وصفة الجهر.

وعندما أراد د. بشر (2000م: 278–279) تفسير الخلاف بين القدامى والمحدثين حول موضع النطق بصامت القاف قال: إنه راجع " إلى واحد من اثنين : الأول : لعل علماء العربية أخطؤوا في تقدير الموضع الدقيق لنطق القاف ... الثاني: وهو ما تشير الدلائل إلى رجحانه وهو أن العرب ربما كانوا يتكلمون عن قاف تختلف عن قافنا الحاضرة، ليس من البعيد أنهم يقصدون بالقاف ذلك الصوت الذي تمكن تسميته بالجاف أو ما يشبه الكاف الفارسية ...وهو شبيه بالجيم القاهرية، أو هو هي من حيث الأثر السمعي، وإن اختلفا في التوزيع الصوتي في اللغة وفي وظائفهما في البنية اللغوية. "

بعد استبعاد الاحتمال الأول وهو تخطئة علمائنا الأوائل، علينا أن نناقش الاحتمال الثاني؛ ففيه نقطة مهمة جديرة بالغوص فيها واستنباط النتائج منها، فهو يرجّح أنّ القاف المقصودة عند القدماء هي الشبيهة بالكاف الفارسية أو الجيم القاهرية، وهو احتال قد يبدوبعيداً، فكيف يقصد سيبويه بالقاف الفصيحة قافاً شبيهة بالكاف الفارسية أو الجيم القاهرية كما سماها د. بشر وقد ذكرها (سيبويه :4/432) ضمن الأصوات التي سماها غير مستحسنة لا في لغة من ترتضى عربيته، ولا في قراءة القرآن، ولا في الشعر وهي : الكاف التي بين الجيم والكاف، والجيم التي كالكاف؟

بعبارة أخرى، كيف يقصد سيبويه القاف التي كالجيم في بعض لهجاتنا عندما يصف القاف الفصيحة، ثم يذكرها في موضع آخر على أنها من الأصوات غير المستحسنة ؟ لابد أنه يتحدث عن صوتين مختلفين، أولهما فصيح مستحسن وصف مخرجه و صفاته العامة والخاصة، والآخر غير مهم

ISSN: 2523 – 1871

عنده، فلم يذكر مخرجه، ولم يبيّن كيفية حدوثه ولا صفاته؛ لأنه غير مستحسن ،بمعنى أنه ناتج عن تطور لغويّ، أو هو صورة من صور النطق عند بعض اللهجات الأخرى التي لا تتسم بالفصاحة.

هذا فضلاً عن أن سيبويه –كما نعلم– يصف الصوت كما سمعه من العرب الخُلَّص صحيحاً فصيحاً ولا يمكن أن يُطْعنَ في نقله، فكيف يمكننا التوفيق بين أن يكون سيبويه قاصداً القاف البدوية في وصفه لصوت القاف، وبين أن القاف التي نعرفها في فصحانا اليوم هي التي يُقرأ بها في القرآن الكريم ؟

نعم، ثمة تطور أو تغيّر يحصل في نطق الأصوات اللغوية، وهو في الواقع انحراف عن النطق الصحيح للصوت، هذا لا جدال فيه ولا مناص من حدوثه، أما أن يكون صوت القاف الذي نسمعه اليوم في لهجاتنا البدوية أو العامية هو الذي كان يُنطق به على عهد سيبويه في تلاوة القرآن الكريم – فإن هذا غير مستساغ ؛ لأنه ببساطة يُعدُّ لحناً واضحاً (جلياً) لدى القراء وعلماء التجويد.

وهنا علينا أن نستوضح بشيء من التأني كيف وصف سيبويه مخرج صوت القاف، وما الذي فهمه المحدثون من هذا الوصف، ومدى مطابقة فهمهم لما أراده سيبويه بالفعل .

مخرج صوت القاف عند سيبويه :

الواقع أن سيبويه حينما وصف القاف بأنها تخرج من أقصى اللسان مع أقصى الحنك لم يقل إنها من اللهاة كما نجد ذلك بوضوح عند غيره وعند المحدثين، وهذا لا يعني أنه لا يقصد اللهاة بعينها، فربما قصدها ضمن منطقة واسعة تشمل اللهاة سماها (أقصى الحنك)، وهي المنطقة التي تأتي بعد الحلق مباشرة، وسيبويه –كما نعلم– قد ارتضى تقسيماً ثلاثياً لأجزاء الجهاز النطقي؛ هي: الحلق، والحنك، واللسان، وقسم كل جزء منها –تقريباً– إلى: أقصى، وأوسط، وأدنى، فكان موقع القاف عنده – بطبيعة الحال– في أقصى الحنك مع أقصى اللسان.

ومما يُستأنس به في هذا المقام جعلُ سيبويه الهمزة من الحلق (433/4) في حين أثبت الدرس الصّوتيّ الحديث أنها من الحنجرة وليست من الحلق ،فربما كان عذر سيبويه في عدم معرفته اللهاة

ISSN: 2523 – 1871

كعذره في عدم معرفته الحنجرة، أو لنقل إن المشكلة تكمن في عدم اصطلاح تسميةٍ لكل جزء من أجزاء جهاز النطق على حدة في هذه المرحلة المبكّرة من الجهود العلمية الصوتية، بل نجد بدلاً من ذلك ضمَّ كل جزء إلى ما جاوره من الأجزاء.

أما تحديد مخرج الكاف بعد ذلك أنَّها" من أسفل من موضع القاف من اللسان قليلاً وما يليه من الحنك الأعلى " (433/4) فعبارته (أسفل من موضع القاف) لا تعني أسفله باتجاه الحلق بدليل قوله : (من اللسان)، أي من جهة اللسان.

وربما أعاننا ابن جني على فهم ما أراده سيبويه في وصفه لصوت القاف ؛ فابن جني يسير على نهج سيبويه، ويُرتِّب الأصوات كما هي عند سيبويه، مع وجود اختلافات طفيفة في بعض الأمور، رأى بعض الباحثين (بشر: 90) من خلالها أن ابن جني أكثر دقة في كلامه من سيبويه، وأن ما أورده ابن جني يوافق –في نظرهم– نتائج الدرس الصوتي الحديث إلى حد بعيد، لكنني أميل إلى القول بأن ابن جني استوعب وصف سيبويه لمخارج الأصوات وصفاتها؛ وصاغه على نحو أكثر إيضاحاً، وما يثبت ذلك أننا نجد مخرج القاف بعد الكاف في ترتيبه للمخارج من الحلق حتى الشفتين، يقول ابن جني (52/1):" ومن وسط الحلق مخرج العين والحاء، ومما فوق ذلك مع أول الفم مخرج الغين والخاء، ومما فوق ذلك من أقصى اللسان مخرج القاف، ومن أسفل من ذلك وأدنى إلى مقدم الفم مخرج الكاف. "

هذا ما يقوله ابن جني، فلو أننا أزلنا من أذهاننا التمسك بالمصطلحات لتسنّى لنا فهم الوصف الصوتي لدى الأسلاف فهماً صحيحاً؛ فسيبويه وابن جني يطلقان على مخرج القاف أقصى اللسان مع أقصى الحنك، في حين أن الدرس الصوتي الحديث يرى أنه يخرج من اللهاة، هذا هو الاختلاف الأول الذي لا يعدو أن يكون اختلافاً حول المصطلح ؛ أي أن سيبويه كان يصف قافنا الفصيحة التي يقع مخرجها (أي اللهاة) ضمن منطقة واسعة هي أقصى الحنك، وقد حدد ابن جني مخرج القاف بالنسبة إلى الكاف، فكان وصفه أوضح لنا عندما ذكر أنها (أي الكاف) من أسفل من ذلك (أي من مخرج القاف) وأدنى إلى مقدم الفم، وهي العبارة التي تنهي أي إشكال، وقد كانت عبارة سيبويه التي لم يلتفت إليها المحدثون (من اللسان).

لذلك كله أرى أنه ليس من العدل في شيء أن نُخطِّئ الأسلاف ونتهمهم بالخلط كما نجد عند بعض الباحثين (حسان :1979م ص111–112) الذي يرى أن ابن الجزري " يغلط في تحديد مخارج أصوات الخاء والغين والكاف ...فيقول: إن صوتي الخاء والغين من أدنى الحلق إلى الفم وراء مُخرج القاف مع أنهما من مؤخر اللسان مع الطبق أمام مخرج القاف، وهو يجعل الكاف خلف القاف والعكس أصحّ، فصوت الكاف من نفس مخرج صوت الخاء والغين."

فمن الواضح أن الباحث يضع الوصف الصوتي الحديث للأصوات معياراً ثابتاً صارماً يقيس عليه وصف أسلافنا دون أن يضع في حسبانه أن ثمة اختلافاً في كيفية الوصف الصّوتيّ بين القدامى والمحدثين، لكنها لا تؤدي بالضرورة إلى وجود خلط عند أحدهما.

والناظر إلى نص ابن الجزري((د.ت) :199–200) لا يرى فيه أي خطأ، بل يتأكد لدينا ما أثبتناه من أن سيبويه قصد ما يقصده المحدثون تماماً، يقول: " المخرج الرابع –أدنى الحلق إلى الفم– وهو للغين والخاء ...والمخرج الخامس –مما يلي الحلق وما فوقه من الحنك – وهو للقاف، وقال شريح : إن مخرجها من اللهاة مما يلي الحلق ومخرج الخاء، المخرج السادس أقصى اللسان من أسفل مخرج القاف من اللسان قليلاً وما يليه من الحنك وهو للكاف، وهذان الحرفان يقال لكل منهما لهوي؛ نسبةً إلى اللهاة وهي بين الفم والحلق. "

فمن خلال هذا النص نرى أن ابن الجزري لم يقل إن صوتي الغين والخاء وراء مخرج القاف، كما أنه لم يقل إن صوت الكاف خلف القاف، ونحن نعلم أن ابن الجزري يسير على نهج سيبويه في ترتيب الأصوات من الحلق حتى الشفتين ،فعندما يقول: (وراء) يقصد بها (بعد) وبذلك يكون معنى كلامه :أن مخرج الغين والخاء بعد مخرج القاف في الترتيب البادئ من الحلق حتى الشفتين، لا البادئ من الشفتين حتى الحلق كما هو الحال لدى المحدثين، فلا يكون هناك إشكال ولا خلط.

وكذلك الأمر فيما يختص بصوت الكاف التي جعلها ابن الجزري (خلف) القاف؛ أي في الترتيب الذي يسير عليه ابن الجزري وأخذه عن سيبويه، وهو المبتدئ من الحلق المنتهي بالشفتين، وهنا– أيضاً– لا وجود لإشكال ولا خلط، وهذه هي النقطة الأولى التي أردت توضيحها في نص ابن الجزري.

ISSN: 2523 – 1871

يرشدنا نص ابن الجزري –أيضاً – إلى نقطتين أخريين، الأولى : تتعلق بالمصطلح إذ يقول إن "مخرج القاف من اللهاة مما يلي الحلق ومخرج الخاء" (النشر : 199–200) فهو يذكر هذه الجزء من الفم باسم (اللهاة)، ولم يسمّه كما سمّاه سيبويه (أقصى اللسان مع الحنك).

أما النقطة الثانية فهي أنه يدرك أن تسمية أقصى اللسان أو اللهاة في مفهومهم تدل على منطقة واسعة تضم عدة أصوات، وهو لذلك حاول تضييق موضع القاف، وتحديد مكانه بكل ما أوتي من دقة بقوله:" مما يلي الحلق وموضع الخاء" لعله بهذا الوصف يرسم حدوداً لموضع صوت القاف، لا تتداخل مع حدود غيره من الأصوات القريبة، ومن ثَمّ يحصر الموضع حصراً جيداً.

وإذا نظرنا إلى وصف ابن سينا (1983: 73–74) للقاف وجدناه موافقاً لكل ما سبق أن أوردناه من وصف الأسلاف للأصوات؛ فهو يذكر مخرج القاف بعد مخرج الخاء في الترتيب، لكنه عندما يصف القاف يقول: إنها تحدث حيث تحدث الخاء، ولا فرق بينهما إلا في شدة الحبس الذي يقع على الجزء المشترك بين اللهاة والحنك.

وما نلحظه أولاً ونؤكده أن ابن سينا لا يعني بهذا إلا القاف الفصيحة التي نعرفها اليوم، فهي القريبة من الخاء كل هذا القرب، وهذا الوصف لا يدع مجالاً للشك في كونها القاف الفصيحة، وهي ذاتها التي وصفها سيبويه وابن جني وابن الجزري، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن تكون القاف التي ننطقها في لهجتنا أو في غيرها من اللهجات العربية.

ثم إن ابن سينا يستعمل مصطلح اللهاة مشتركاً مع الحنك، ولقد نجد هذا المصطلح – أيضاً – عند الخليل (الفراهيدي (د.ت):1/ 58) عندما ذكر أن" القاف والكاف لهويتان والكاف أرفع. "

لكن، هل بوسعنا أن نقول: إن الخليل يريد باللهاة ما هو معروف لدى علماء الأصوات اليوم؟ أي الموضع الخاص فقط بصوت القاف ؟

الإجابة بالنفي، وما تحديده لصوتي القاف والكاف في منطقة واحدة إلا دليل على أنه يقصد منطقة أوسع من منطقة القاف الفصيحة وحدها، وعلى ذلك يكون مصطلح اللهاة عند الخليل وعند غيره

ISSN: 2523 – 1871

ممن ذكره مساوياً لمصطلح (أقصى الحنك) عند سيبويه ومن تبعه، وذلك بالنظر إلى الأصوات التي تتضمنها هذه المنطقة.

ولنا أن نتصور بعد ذلك كيف تطوّر المصطلح الذي يدلّ على مخرج القاف وحدها دون مشاركة لغيرها من الأصوات المجاورة لها، فصار (اللهاة) مصطلحاً خاصّاً بمخرج القاف وحدها، بعد أن كان يتسع للكاف والقاف معاً عند الخليل، واختفى مصطلح أقصى الحنك للدلالة على مخرج القاف كما كان عند سيبويه، لكننا لا ينبغي بحال من الأحوال أن نطالب علماءنا القدماء – مثل سيبويه – بكل هذه الدقة في تحديد المصطلح، كما لا ينبغي أن نخطّئهم في محاولاتهم الجاهدة لرسم ملامح واضحة لمخرج الصوت اللغوي وكيفية حدوثه، حتى لو كان ذلك عن طريق الاستعانة بمقاربته بغيره من الأصوات المحاذية له في موضعه من جهاز النطق ؛ فهذه المحاولات وإن بدت ساذجة إلا أنها حقيقيةٌ صائبةٌ في الوصف، وقد اتضح لنا ذلك جلياً في دراستنا هذه، إذ لم يكن علينا إلا أن نتروى في الفهم وأن نتئد في الحكم.

خلاصة القول في وصف كيفية إنتاج القاف الفصيحة في جهاز النطق أننا عندما ننطق بها يندفع الهواء من الرئتين ماراً بالحنجرة، فلا يُحرّك الوترين الصوتيين –وهذا يعني أنه مهموس– ثم يتخذ الهواء مجراه في الحلق حتى يصل إلى أدنى الحلق من الفم ، وهناك ينحبس الهواء باتصال اللهاة بأقصى اللسان، ثم ينفصل العضوان انفصالاً مفاجئاً فيحدث الهواء صوتاً انفجارياً شديداً (أنيس: 75).

وعلى ذلك توصف القاف عند المحدثين بأنها صوت لهويٌّ شديد أي انفجاري أو انسدادي، وهو مهموس لعدم تذبذب الوترين الصوتيين عند مرور الهواء بهما، وهنا لا مناص لنا من النظر بعين محلِّلةٍ ناقدةٍ مقارِنةٍ بين من يرى بأنها صوت مهموس ومن يرى بجهرها.

أمجهور صوت القاف أم مهموس ؟

تكمن نقطة الخلاف الثانية بين القدامى والمحدثين في كون صوت القاف مجهوراً عند الأوّلين مهموساً عند الآخِرين، فقد ذكر سيبويه (434/4) القاف ضمن الأصوات المجهورة معرّفاً المجهور بأنه: "حرف أُشْبِع الاعتمادُ في موضعه، ومُنِعَ النَّفَس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد عليه ويجري

ISSN: 2523 – 1871

الصوتُ " كما عرّف المهموس في السياق نفسه بأنه حرف " أُضْعِفَ الاعتمادُ في موضعه، حتى جرى النفس معه، وأنت تعرف ذلك إذا اعتبرتَ فردّدتَ الحرفَ مع جَرْيِ النَّفَسِ، ولو أردت ذلك في المجهورة لم تقدر عليه. "

لكنّ المحدثين يرون أنه صوت مهموس، يقول د. أنيس (74/73): إن "القاف كما ينطق بها الآن في مصر بين مجيدي القراءات صوت شديد مهموس، رغم أن جميع كتب القراءات قد وصفتها بأنها أحد الأصوات المجهورة. "

ثم يعرض احتمالات متعددة في محاولة منه لتفسير وصف القدماء للقاف بالجهر، فيقول (أنيس:74):ربما كان صوتاً يشبه تلك القاف المجهورة التي نسمعها الآن من القبائل العربية في السودان وبعض قبائل جنوب العراق؛ إذ نسمعها منهم نوعاً من الغين، ولهذا يفترض د. أنيس أن القاف الأصلية – أي التي وصفها سيبويه ومن تبعه بالجهر – كانت تشبه ذلك الصوت المجهور الذي يُسمع الآن من بعض القبائل السودانية، ثم هُمِس مع توالي الزمن وأصابته صفة الشدة.

ثم ذكر فرضاً آخر رأى أنه أكثر احتمالاً هو أنها كانت تشبه الجيم القاهرية، ولكنها أعمق منها وأكثر استعلاء، وقد استأنس بنطق معظم البدو الآن القاف على هذا النحو، فهذا النطق قديم الوجود، لكن أنيس عندما وصل إلى أن هذه القاف فصيحة وهي التي نطق بها الرسول صلى الله عليه وسلم والقرشيون عموماً قال : إن الأمر يحتاج إلى تحقيق .

أما (د. شاهين: 1987م: 230) فيرى أن " صوت القاف العربية لهويّ شديد انفجاري مجهور، وصفه القدماء بالاستعلاء والتفخيم، ومما يؤكد صفته كمجهور أن القدماء قد نبّهوا إلى إظهار الغين إذا جاورت القاف في مثل "لا تزغ قلوبنا"؛ لقرب ما بين الغين والقاف مخرجاً وصفةً.

فهل صوت القاف مجهور؟ وهل كونه مجهوراً يعني أن نفترض أنها هي نفسها قافنا التي ننطقها في لهجاتنا البدوية كما تُسمى ؟ أم أن علماءنا الأوائل كانوا يقصدون بالجهر أمراً آخر ؟ وفي هذه الحال ينطبق معنى الجهر لديهم على القاف الفصيحة.

وتجدر الإشارة إلى أن ثمة صوتين آخرين لم يتفق المحدثون مع القدماء حولهما أَهُما من الأصوات المجهورة أم المهموسة؟ وهذان الصوتان هما الطاء والهمزة، فالأول عند القدماء من المجهورات وهو عند المحدثين من المهموسات، أما الثاني – أي الهمزة فقد وضعها القدماء ضمن المجهورات بينما نجدها عند المحدثين(الحمد: 1986: 224) غير مجهورة ؛ فبعضهم رأى أنها مهموسة، وتأتي جهة الهمس من أن إقفال الوترين الصوتيين معها لا يسمح بوجود الجهر في النطق ،ويرى بعضهم الآخر أن الهمزة صوت لا هو بالمجهور ولا بالمهموس؛ لأن وضع الوترين الصوتيين لا يسمح بوجود الجهر أو الهمس .

فإذا ما نظرنا بشيء من التأمل في طريقة التفكير الصوتي لدى القدماء ربما استطعنا من خلال إطلاق صفة الجهر على الهمزة والطاء –فضلاً عن القاف موضوع دراستنا – أن نقترب أكثر مما يعنونه بالجهر أو الهمس، فما الذي يميز القاف والطاء والهمزة من وجهة نظر القدماء ليجعلها تتصف بصفة الجهر؟ إن مفهومهم هذا يختلف بلا ريب عن مفهوم المحدثين.

إن ما قام به علماؤنا القدامى في تصنيف الأصوات وتقسيمها إلى مجموعتين مجهورة ومهموسة يعدّ فتحاً وإنجازاً علمياً باهراً ؛ وذلك من ناحيتين؛ الأولى: أن هاتين المجموعتين تكاد تتطابق الأصوات داخلها مع ما توصّل إليه العلم الحديث، فيما عدا الأصوات الثلاثة التي ذكرتها آنفاً وهي القاف والطاء والهمزة، أما الناحية الثانية فتكمن في صعوبة تحديد هاتين الصفتين (الجهر والهمس) التي تكمن بدورها في صعوبة وصولهم إلى مصدرها وهو الوتران الصوتيان، فضلاً عن إدراكهم لوضعهما من حيث الثبات والتذبذب أمام تيار الهواء المتدفق.

ولا يخفى أن علماءنا القدامى لم يكن بوسعهم التوصل إلى أن الوترين الصوتيين ثابتان لم يهتزا أمام دفقة الهواء مع صوت القاف، وأن هذا الأمر يجعله مهموساً، كما لم يكن واضحاً لديهم – أيضاً – أن الوترين الصوتيين يتطبقان على بعضهما تمام الانطباق، ثم يبتعدان فجأة مع صوت الهمزة؛ فينتج عن ذلك تسميتها لدى المحدثين بأنها صوت لا مجهور ولا مهموس، وكذلك الحال مع صوت الطاء

التي وصفها المحدثون بالهمس؛ لعدم تذبذب الوترين الصوتيين، في حين أن القدماء لم يكن لهم المقياس نفسه.

والراجح أن القدماء لاحظوا ملامح قوة في هذه الأصوات الثلاث جعلتهم يصنفونها ضمن الأصوات المجهورة، فالهمزة "نبرة في الصدر تخرج باجتهاد "(سيبويه:1973م :548/3) ،وهذا مصدر قوتها، أما الطاء والقاف فهما قويتان؛ لوصولهما إلى درجة من علو الصوت فاقت غيرهما من الأصوات ؛لذا نجدهما من أصوات القلقلة عند علماء تجويد القرآن مع الباء والجيم والدال وكلها مجهورة.(الجريسي:2011م :75-78)

لذلك عندما نقرأ تعريف سيبويه(434/4) للمجهور أنه "حرف أُشْبِع الاعتمادُ في موضعه، ومُنِعَ النَّفَس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد عليه ويجري الصوتُ" لا يتبادر إلى الذهن أبداً أنه يتحدث عن هذا الجزء الدقيق من الحنجرة ،إنما يعتمد في تحديده لصفة الجهر على إحساسه بقوة مصدرها الصدر عموماً ،يسميها صوت الصدر، والصوت المجهور يكون مشبع الاعتماد؛ أي يكون واضح القوة، ومن ثم هو أوضح في السمع من المهموس، فقد أراد سيبويه أن يصف شيئاً زائداً في حالة الجهر عن حالة الهمس عندما قال :" ويجري الصوت " إلا أنه –كما رأى د. شاهين– (1408هـ– 1987م: 201) " لم يدرك أن منشأ هذه الزيادة في الحنجرة ".

فلو نظرنا إلى اختلافهم – قدماء ومحدثين– حول الهمزة أهي صوت مجهور أم مهموس؟ لوجدنا أن المتأخرين قد اعترضوا على وسم القدماء لها بالجهر، لكننا نجدهم قد اختلفوا فيما بينهم – أيضاً – "فبعضهم رأى أنها مهموسة، وتأتي جهة الهمس من أن إقفال الوترين معها لا يسمح بوجود في النطق ... وقال آخرون : الهمزة صوت لا هو بالمجهور ولا بالمهموس؛ لأن وضع الوترين الصوتيين لا يسمح بوجود الجهر أو الهمس" (الحمد: 1986: 224).

الأمر إذن يبدو غاية في الصعوبة، أعني أن المحدثين قد اختلفوا حول صوت الهمزة، ولم يأتوا بوصف حاسم، فهل هو مهموس أم مجهور أم هو صوت لا مجهور ولا مهموس ؟ إذن هل له وصف

ثالث ؟ وإذا كان صعباً عليهم فكيف لا يكون كذلك على الأولين من علمائنا الذين وصفوا الأصوات اعتماداً على الملاحظة الذاتية وعلى نطقهم وسماعهم ؟

هذا فضلاً عن استفادة الدراسات الصوتية الحديثة من تمكن الأطباء من تشريح دقيق لأعضاء النطق، فتمكّن علماء الأصوات المحدثين من الوصول إلى هذا الوصف الصوتي للهمزة وغيرها من الأصوات، بينما لم يتوصل علماؤنا الأوائل إلى حقيقة صفتي الجهر والهمس فيها من جهة تذبذب الوترين الصوتيين أو عدمه؛ لأنهم لم يعرفوهما أصلا، وإنما كانوا يعتمدون تعريف سيبويه الجهر والهمس، الذي كان يعتمد نطقه الأصوات وذوقها في تصنيفها ووصفها مخرجا وصفة. (الصيد :2005–2006 : 182)

أما سيبويه(434/4) فقد شرح كيفية التفريق بين المجهور والمهموس من خلال التجربة عندما قال: " وأنت تعرف ذلك إذا اعتبرت فرددت الحرف مع جري النفس، ولو أردت ذلك في المجهورة لم تقدر عليه، فإذا أردت إجراء الحروف فأنت ترفع صوتك إن شئت بحروف اللين والمد بما فيها منها، وإن شئت أخفيت. "

وتفاصيل هذه التجربة كما يرى د. شاهين (1985م : 203–204) –وكما هو واضح فعلاً– "متصلة بما سبق له في تعريف المجهور والمهموس، فهو يقول: إن المهموس يمكن ترديده خلال جري النفس بعكس المجهور، بمعنى أننا لو أطلقنا النفس على طبيعته، وحاولنا خلال ذلك النطق بالسين مثلاً مكررةً لأمكننا ذلك، ولسمعنا صوت السين مكرراً دون أن يسبقه أو يلحقه صوت مد (قصير أو طويل). "

فهذه طريقة القدماء في اختبار الصوت، ومن ثَمّ تصنيفه مجهوراً أو مهموساً، وبهذه الطريقة صُنّفَ صوت القاف –موضوع الدراسة– بأنه مجهور، وهي طريقة تختلف عما اعتمد عليه المحدثون من النظر إلى اهتزاز الوترين الصوتيين من عدمه، فلم يكن متاحاً لهم ولا ممكناً في عصرهم وضمن إمكاناتهم معرفة الوترين الصوتيين، لكنهم ربما أحسوا بأثرهما في العملية الصوتية وفي إحداث صفة الجهر بالذات، وهذا ما رجحه د. أنيس (1999: 102) عندما قال : إن" الحس المرهف لسيبويه جعله

يشعر مع المجهور باقتراب الوترين الصوتيين أحدهما من الآخر، حتى ليكادان يسدان طريق التنفس، وتلك الصفة هي التي وضحها لنا المحدثون حين وصفوا ما يجري في الحنجرة مع المجهورات، إذ قالوا إنه مع المجهور يقترب الوتران الصوتيان أحدهما من الآخر، مما يضطر هواء النفس إلى الاندفاع من بينهما في قوة تحرك الوترين الصوتيين، وتجعلهما يتذبذبان ويظلان يتذبذبان حتى ينقضي الاعتماد؛ أي حتى تنتهي العملية العضوية المطلوبة في إصدار الصوت. "

وتجدر الإشارة إلى أن صوت القاف لو عددناه مهموساً كما رأى المحدثون فإن الصوت المجهور (القاف البدوية) –التي رجح كثير منهم أن سيبويه يقصده عندما وصف القاف بالجهر – هو في الواقع أقرب إلى أن يكون مجهور الكاف وليس مجهور القاف، أعني أن الكاف صوت مهموس والمقابل المجهور له هو القاف البدوية، أما القاف المهموسة حسب وصف المحدثين فليس لها مقابل مجهور ! فلعلّ هذا يكون دليلاً على أن القاف صوت مجهور كما رأى القدماء بحسب معاييرهم التي ذكرناها سابقاً، وإذا قارنا بين القاف الفصيحة والكاف من حيث كيفية النطق والصفات المميزة لكليهما أدركنا الفرق بين المجهور والمهموس بحسب فهم علمائنا القدامى.

فإذا كان فهمنا لكلام سيبويه يوصلنا إلى ما أتى به العلم الحديث في وصفه لصفة الجهر فلِمَ يُخطّأ سيبويه إذا وصف الأصوات أو تحدث عن صفاتها أو كيفية حدوثها؟ إن ما قام به العلماء القدامى عمل رائع، وجهد فريد، انبنى على حس علمي مرهف، يعتمد الملاحظة والتجربة، فخرجت لنا منظومة الأصوات بدقة متناهية، وما علينا إلا أن نتريث في فهم نصوصهم وألا نتسرع في الحكم عليها.

الخاتمة

بعد دراسة طرائق القدامى والمحدثين والمقارنة بينهما حول الوصف الصوتي لصوت القاف تبيّن لي ما يأتي من نتائج:

1– أن تحديد سيبويه لمخرج صوت القاف كان صائباً ليس فيه أي خطأ ؛ فموضع تكوّن القاف في جهاز النطق عنده هو نفسه الذي حدده المحدثون فيما بعد، وكانوا أكثر دقة وتفصيلاً في الوصف، لكنهم لم ينتبهوا إلى أن سيبويه يسير على ترتيب معين يبدأ من الحلق حتى الشفتين ،وعندما رسم موضع

القاف من خلال مجاورته للكاف فقال: إن الكاف أسفل من موضع القاف ظنوا أنه أخطأ، وتوهموا أنه يقصد قافاً غير التي ننطقها اليوم في الفصحى وفي القرآن الكريم .

2- أن سيبويه ذكر نوعاً من الأصوات قريباً من القاف ضمن الحروف التي سماها غير مستحسنة وهو صوت بين الكاف والجيم، أو الجيم التي كالكاف، ووجود هذا الصوت ضمن مجموعة أخرى أقرب ما تكون إلى اللهجة أو الحرف غير الفصيح -لأن هناك من يسميها الكاف الفارسية- يجعلنا نجزم أن سيبويه لم يكن ليقصد عندما وصف صوت القاف إلا قافنا الفصيحة .

3- أن القرآن الكريم كفيل بحفظ لغتنا أصواتاً وألفاظاً وتراكيب، فلا يمكن بحال من الأحوال أن يكون صوت القاف الذي ننطق به في القرآن الكريم والذي يُشترط فيه أن يحمل صفة القلقلة ليس صوت القاف الذي وصفه سيبويه، فلو سلمنا بما يراه المحدثون من أن سيبويه يقصد قافاً مثل التي ننطقها في لهجاتنا العامية البدوية، لكانت النتيجة صوتاً خالياً من صفة القلقلة وهذا محال.

4- صوت القاف مجهور عند علمائنا القدامى وفي مقدمتهم سيبويه، بينما يراه المحدثون مهموساً، وهذا سبب جوهري في نظر المتأخرين، يجعلهم يتأكدون من أن سيبويه ومن تبعه يصف قافاً مثل التي في لهجتنا؛ لأن هذا الصوت مجهور، غير أن معطيات الأسلاف وطريقة تناولهم صفة الجهر بالوصف والتحليل تجعلنا نعيد النظر في فهمنا لأسلوبهم، فالمجهور فيه قوة صوتية تختلف عن المهموس، وهذا ما رآه الأسلاف في صوت القاف .

قائمة المصادر :

1. ابن الجزري(1432هـ)، "النشر في القراءات العشر "، تصحيح ومراجعة: علي محمد الصباغ، ال قاهرة، المكتبة التجارية الكبرى.

2. ابن جني(1954م)،"سر صناعة الإعراب "، تحقيق: مصطفى السقا، محمد الزفزاف، إبراهيم مصط فى، عبدالله أمين، ط1، مصطفى البابي الحلبي.

3. ابن سينا، أبو علي الحسن بن عبدالله(1983م)،"أسباب حدوث الحروف "، تحقيق: محمد حسن ا لطيان، يحيى مير علم، تقديم ومراجعة: شاكر الفحام، أحمد راتب النفاخ.

4. أبو مغلي، سميح(1978م)، " نظرات في اللغة "، شركة الأصدقاء للطباعة والتجارة.

5. أنيس، إبراهيم(1987م)، " الأصوات اللغوية "، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية.

6. بشر، كمال محمد(1980م)، "علم اللغة العام(الأصوات)" ،ط6، مصر، دار المعارف.

7. الجريسي، محمد مكي نصر وحسن، أحمد علي (2011م)،" نهاية القول المفيد في علم تجويد القرآن المجيد: تدقيق وضبط "، مراجعة: الشيخ علي محمد الضباع، القاهرة ، مكتبة الآداب.

8. حسان، تمام(1979م)،" مناهج البحث في اللغة "، دار الثقافة.

9. الحمد، غانم قدوري(1986م)،" الدراسات الصوتية عند علماء التجويد "، بغداد، مطبعة الخلود.

10. سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر(1975م)، "الكتاب "، تحقيق وشرح : محمد عبدالسلام هارون ،ج3، ج4 ،القاهرة، الهيأة المصرية العامة للكتاب.

11. شاهين، عبدالصبور(1985م)،" في التطور اللغوي "، ط2، مؤسسة الرسالة.

12. شاهين، عبد الصبور(1987م) "أثر القراءات القرآنية في الأصوات والنحو العربي"، القاهرة، مكتبة الخانجي.

13. الصيد، آمال(2005–2006م)، " التقاء الهمزتين في رواية قالون عن نافع المدني من طريق الشا طبية:دراسة صوتية"، **مجلة الباحث**:مجلة علمية سنوية محكّمة تصدرعن كلية إعداد المعلمين،ع4

14. الفراهيدي، الخليل بن أحمد(د.ت)، " معجم العين "، تحقيق: مهدي مخزومي، إبراهيم السامرائ ي، المجلد الأول، دار الهلال.